

كتاب تعلم من أصولنا الثقافية : منهج قراءته (*)

د . سيد أحمد عثمان (**)

نبداً تنور قلوبنا بذكر الله ، ونعطر دروبنا بالصلاة والسلام على خير نبي وخير هاد ، فانه بذكر الله تطمئن القلوب ، وتسكن فتفه ، وانه بالصلاة والسلام على الأسوة الحسنة تشتد العزائم ، وتسدد الخطى على سبيل الرشاد .

واستهل بأن أدعو الله - جلت قدرته - أن يهبنا بفضله نعماً قلبية ثلاثاً : **أولها** - خلوص النية لله تعالى في عملنا ، بل جهادنا العلمى ، فلا تشويه شائبة من تلفت الى غير وجه الله ، أو من تطلع الى غير الحقيقة العلمية التى فيها نفع أمتنا ، التى هى أمانتنا ، **وثانيها** - التثبث العلمى بحيث نتحرك فى عملنا ، بل جهادنا العلمى ، حركة الواثق المتمكن من كل جانب من جوانب العلم ، ومن كل منحى من مناحيه ، فهذا هو دأب الراسخين فى العلم ، ورجل العلم المسلم أولى بهذا الرسوخ ممن سواه ، وثالث النعم التى أدعو الله سبحانه أن يفيض علينا بها هى نعمة الرفق الذى يزين سعى رجل العلم المسلم ، والأنارة التى تضبط حركته ، والصبر الذى يحكم تقدمه ، ألا يعجل ، أو يستعجل ، فان من طبيعة العلم الحق الانبثاق الوديع ، والنمو المتند ، والتحول الرصين .

أما بعد ،

فان ذاتيتنا الثقافية الاسلامية المتميزة انما تتحقق بأن ننهج فى سبيلها نهجين ، **أولهما موصول** بأصولنا الثقافية ، وجذورنا الفكرية ، ومصادرنا العلمية الاسلامية ، ذلك لأن هذا هو قلب الذاتية المعطية حياة وقوة ونماء ، والواهبها صبغة بها تتفرد ، وصيغة بها تتمايز ، **والنهج الآخر متصل**

(*) حديث قدم فى مساء الاحد ٢٥ ذو القعدة ١٤١٣ هـ (١٦ مايو ١٩٩٣)

بكلية العلوم الاجتماعية - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض .

(**) أستاذ علم النفس التربوى بكلية التربية ، جامعة عين شمس .

بثقافة ، وفكر ، وعلم العصر الذى نعيشه ونعايشه ، ولا يمكن ، ولايسمح لنا
اسلامنا ، أن نغفل عنه ، أو نهمله ، أن ندير له ظهورنا ، أو نستهيى به ، أو
ننقطع عنه .

موصوليتنا بثقافتنا الاسلامية هى توكيد وتعميق لذاتيتنا ، **واتصالنا**
بثقافة عصرنا هو اشتداد وتفتح لذاتيتنا . وانه من هذا التمازج بين الأصول
التي تجرى فى عروق فكرنا ، وبين سياق العصر الذى نتنفس هواءه ، من
هذا التمازج المتكامل ، تنتعش فى الذاتية الثقافية المسلمة روح الابداع ، إذ
لايمكن أن يكون ابداع ذاتى ، ولاتبعد الذات ، الا من عمل هذه السروح
النتعشة بعيق ماضيها الذى فيه بذور النماء ، وألق حاضرها الذى فيه بوارق
الرجاء .

وقد شاءت ارادة الله سبحانه أن ادخل دائرة هذا التمازج الخصيب بين
نتاج ثقافتنا العلمية الأصيلة ، وبين سياق علمنا المعاصر ، عندما هديت الى
عمل علمى لشيوخ من شيوخنا الذى عنى بالتعلم ، ووضع فيه كتابا قائما
برأسه هو كتاب «تعليم المتعلم طريق التعلم» ، لشيوخ التعلم القديم برهسان
الاسلام (أو برهان الدين) الزرنوجى .

أما الشيخ الزرنوجى ، فهو فقيه حنفى المذهب ، عاش فى اقليم خراسان
فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى (وفاته حوالى ٦٢٠هـ
- ١٢١٣ م) . وأما كتابه «تعليم المتعلم طريق التعلم» فهو الكتاب الوحيد من
بين كتب التربية الاسلامية القديمة الذى أفرده صاحبه تماما لخصوص التعلم .
وللكتاب نسخة كتبها الزرنوجى بالملغة الفارسية ، الى جانب تلك التى
كتبها بالملغة العربية ، والكتاب مترجم الى اللغة التركية ، وترجم الى اللغة
اللاتينية ، وترجم الى اللغة الانجليزية ، وله خلاصة بالملغة الفرنسية ، وله
عدد من الشروح القديمة ، وقد طبع الكتاب أكثر من عشرين طبعة ، وأشير
بوجه خاص الى طباعته فى ألمانيا ، بالملغة اللاتينية ، فى مدينة ليبزج خاصة ،
مرتين ، فى ١٧٠٩ وفى ١٨٣٨ .

هذا هو كتاب الزرنوجى الوحيد ، وهو الذى كان واسطة بينى وبين
روح ذاتيتى الثقافية الاسلامية ، والذى قرأته قديما قراءة مجملة أحسست
فيها أن بين ثناياها كنوز من المعرفة العلمية فى التعلم ، وطوى الزمن سنوات

فى اثر سنوات ، ثم عدت اليه بعد عشرين عاما ، محاولا أن أعيد القراءة بعين أكثر بصرا ، وبأدوات أكثر فعالية ، فكيف كان منهجى فى هذه القراءة الثانية التى انتهيت منها الى دراستى الأولى عن التعلم عند برهان الاسلام والتى ظهرت عام ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

يتلخص هذا المنهج فيما يلى :

أولا - أن أقرأ هذا الأثر الجليل قراءة اقبال ، وحب ، وشوق . وليس فى هذا مجافاة للموضوعية ، بل انه ترشيد للموضوعية ، وليس هذا من الذاتية ، لأن فيه انضاجا للذاتية . ولا يمكن أن أتناول مثل هذا الأثر ببيروود الموضوعية ، وتباعدها . أن هذا الأثر ينتمى الى ، انتماء قلبيا ، انتماء أظلمه ان أنا تعاملت معه على أنه موضوع مجرد ، وحقه على أن أعانقه عناق الذات للذات . واننى بهذه الروح المقبلة ، قد وجدت ، بحمد الله : أن الكتاب كان يفتح أمامى ، ويكشف لى عن أغواره ، ويفيض لى من أسرارهِ ، مامكننى من أن استخلص منه ، أو استبصر فيه نسقا من التعلم متكاملا فى الساعة ، متماسكا فى تنوعه ، متسقا فى تعدده .

ثانيا - وان موقفى المقبل ، المحب ، المشوق هذا حرك عندى حاسسة الذوق فى قراءة الكتاب . انه ذوق علمى ، فيه مسحة فلسفية ، وفيه لمحة فنية ، وفيه يقظة وجدانية . قراءة الذوق هذه ، مع قراءة الشوق ، أو بقراءة الشوق ، للأثر العلمى الذى حملة الزمن ، وحمته الحكمة ليصل اليها عبر الدهور ، هذه القراءة هى التى تساعد على أن تكون قراءة ألفة قبل أن تكون عارفة ، قراءة متمثلة قبل أن تكون محللة . هذه القراءة هى التى تميز بين قراءة المستشرق الغربى ، الذى هو أعجمى الذوق للعربية قبل أن يكون أعجمى اللسان فيها وبين قراءة الابن المنتمى الى أبيه . وقد قرأ كتاب الزرنوجى مستشرقان هما ابل وفون جروبنوم

(١٩٤٧) ، وانتقدا الزرنوجى انتقادات تسيء الى منهجهم الفكرى ، ونظرتهم العلمية ، أكثر مما تسيء الى الزرنوجى وكتابه . نقدهما فيه ضعف شديد فى أصول المنهج التاريخى ، وفيه تعامل متعجل على الرجل . وقد تأثر بموقفهما هذا ، مع الأسف ، كثير ممن كتبوا عن الزرنوجى ، من العرب المسلمين ، دون أن يكلفوا أنفسهم أن يتحرروا من الحكم الأجنبى ، والرأى الأعجمى ، ويعودوا

ليقرأوا بأعينهم ، ويحكموا برأيهم ، ويحكموا ذوقهم فى قراءتهم للكتاب الزرنوجى
لاغنى عن عمل الذوق فى التفهم الصحيح للآثار العلمية لعلمائنا القديما .

ثالثا - التزمت فى قراءتى ، أو دراستى ، لكتاب الزرنوجى بمسا
تعرض له الشيخ لم أحاول أن أدخل فى آرائه أيا من الفكر النفسى المعاصر
فى التعلم ، وانما تحريرت أنى استشف من كلامه وتحليله ما يتصل بعملية التعلم
فى حقيقتها ، وفى أوسع معانيها ، منظما آراءه ، ومنسقا اياها فيما أسميته
«نسق التعلم عند الزرنوجى» ، وهو مكون ، كما استبصرته ، أو استكشفتها ،
أو كما أستعلن لى وتكشف ، مكون من عناصر رئيسية ، وكل عنصر أدرجت
تحتة عناصر فرعية . وعناصر النسق الرئيسية هى :

التأهب - أدب النفس - الدافعية - الاختيار - الأنشطة - الحفظ
والنسيان - صحة البدن - اجتماعية التعلم .

رابعا - وكما لم أفرض على فكر الزرنوجى فكرا غربيا عنه ، لم أحاول
أن أقومه ، أو أحكم عليه ، بمعيار معاصر ، وانما فى سياق عصره . حتى
اننى لم أسم ما استخلصته من تصور من كتاب الزرنوجى ، لم أسمه «نظرية» ،
لأن النظرية أداة منهجية حديثة من أدوات العمل العلمى ، وأظلمه ، وأظلم
الحقيقية التاريخية والعلمية ، لو أننى أطلقت لفظ نظرية على ما قدمه . لابل
نحكم على نتاج علمائنا ، أعلامنا ، فى ضوء ما قدموه ، وما تقدموا به من
فكر فى زمانهم ، سواء فى الفكر الاسلامى ، أو الفكر العالمى . وقد استطعت ،
بتوفيق من الله ، أن أمس موضعين كان لتصور الزرنوجى عنهما آثار بعيدة ،
الموضع الأول هو كلامه على الاختيار ، الذى أرى أنه أساس من أسس نظام
الاختيار فى المواد الدراسية ، والاستاذ ، وهو النظام الذى يأخذ به كثير من
معاهد العلم المعاصرة ، وما يسمى بنظام الساعات المعتمدة . أما الموضوع
الأخر فهو ما ذكره الزرنوجى من أن طالب العلم يحتاج الى أن يكرر
ما حفظه حديثا أكثر من تكرار ما حفظه سابقا . وأرى أن فكرة الزرنوجى هذه
قد أثرت بشكل ما على دراسات ابنجهاوس فى التذكر ، وهى دراسات تجريبية ،
ولاننسى أن ابنجهاوس كان فى مدينة ليبزج . وأن كتاب الزرنوجى طبع فيها
مرتين ، وكان مترجما الى اللغة اللاتينية وأن اللغة اللاتينية هى لغة التعلم
فى زمان ابنجهاوس (١٨٥٠ - ١٩١٩) .

خامسا - اننى ، وان كنت التزمت فى استخلاص نسق التعلم عند الزرنوجى بكلامه ، فاننى تحررت فى النظرة الى النسق وعناصره ، محاولا أن أربط بين هذه العناصر والدراسات الحديثة فى علم نفس التعلم ، فكأننى احتفظ للنسق بانتمائه الكامل الى الزرنوجى ، ولكننى أتدرك به ، فى استقلال له ، فى سياق علم النفس المعاصر ، وكان أكثر هذا فى تعاملى مع التأهب ، والدافعية ، والأنشطة ، والحفظ والنسيان .

غير أن الزرنوجى تفرد ، وانعكس تفرده هذا فى النسق الذى استخلصته ، بأن تناول أمورا كانت مغفلة ، أو لم تحظ بحقها من الاهتمام فى دراسات التعلم المعاصرة ، منها مثلا ، أدب النفس (وهو عنصر دافعى أخلاقى) ، وصحة البدن وعلاقتها بالتعلم ، واجتماعية التعلم ، وهى مصطلحات من وضعى لأدرج تحتها تناول الزرنوجى لها بتحليله وأسلوبه هو .

سادسا - ولم أكن مستطيعا ، ولاتسمح لى أمانة العلم ومسئوليته التاريخ ، أن أقف أمام دعاوى قذف بها المتعجلون فى وجه الزرنوجى وكتابه وقفة ساكنة سلبية ، لأن معنى هذا أن مافيه من باطل صحيح - فنهضت فى أوبة من أوباتى الى الزرنوجى وكتابه ، مفندا هذه الدعاوى ، التى منها :

(أ) أن كتاب تعليم المتعلم . . صغير الحجم ، فى حيث أن هذه ميزة للكتاب ، وليست مأخذا عليه ، لأن الرجل ، بالتزام منهجى دقيق ، لم يكن يستطرد كما هو شأن ومصنفى الكتب القدماء من موضوع الى موضوع آخر ، وانما كان يحيل القارئ ، طالب العلم ، الى المصادر التى يمكن أن يجد فيها تفصيلا لما يشير اليه ملخصا فى استيفاء ، كما فعل وهو يتكلم على صحة البدن أو الأخلاق .

(ب) أن الزرنوجى لم يأت بجديد فى كتابه ، وان كان الحق أن الزرنوجى لخص بشكل بالغ الأحكام والوضوح ، ماسبقه من أفكار عن التعلم بصفة خاصة ، وقدم بهذا التلخيص عملا جامعا ، وناقعا ، ودافعا للمعرفة العلمية فى زمانه .

(ج) أن فى كتاب الزرنوجى نزعة تواكل . وذلك من كلامه على التوكل فى طلب العلم (وهو عنصر فرعى وضعته ضمن عنصر رئيسى هو التأهب) ،

ومن ذكره أن على طالب العلم أن يحمد الله كلما أصاب قدرا من العلم أو الفهم . عاب عليه المتعجلون هذا ، فى حين أن دور التوكل أكيد فى التأهب ، وفى دافعية التعلم ، ودور حمد الله وثيق بما فيه من تعزيز ذاتى للمتعلم .

(د) أن الزرنوجى عامى ، ولا منطقى فى تفكيره ، وذلك استنادا الى بعض الأمور التى تميل الى جانب الخرافة وردت فى كتاب الزرنوجى فى الفصلين الأخيرين من كتابه . ولو أن ناقديه رعوا أصول المنهج التاريخى ، لما تعجلوا فى هذا الادعاء ، ولأيقنوا أن مافى هذين الفصلين من أمور تجافى العقل ، وتنافى المنطق ، انما هى أمور دخيلة على أصل الكتاب ، لأنها غير متسقة مع سائر أجزاء الكتاب ، ولا متفقة مع مكانة الزرنوجى كفقيه حنفى تتلمذ على أمام من أئمة المذهب الحنفى هو الامام الفرغانى صاحب كتاب «الهداية» .

سابعاً وأخراً - وكان من الطبيعى ، وأنا أرد كتاب شيخنا الزرنوجى السى الحياة ، أن أدمجه فى تيار الحياة الفكرية المعاصرة عندنا ، وأدخله فى سياق الدراسة العلمية المنظمة للتعلم بين دارسينا . ان دراستى للزرنوجى ليست غاية فى ذاتها ، انما هى واسطتى الى أصول فكرنا ، جذور ثقافتنا ، أو هى واسطتى الى ذاتيتى . ولا أقف عند الزرنوجى ، أو أقف به ، بل أدمجه بحيث يتحول الى جزء من نسيجنا العلمى فى علم نفس التعلم . هذا الدمج الذى لا يمكن أن يكون الا بعد الفهم والتفهم ، ولا يمكن الا أن يكون وفق أصول المنهج العلمى للنظرة والتحقق فى علم النفس المعاصر بعامته ، وعلم نفس التعلم بخاصة . وتحقيقا لهذا الدمج ، أو البدء به استطعت أن أحدد تساؤلات أو مشكلات ، مما يثيره تناول الزرنوجى للتعلم ، تصلح لأن تكون موضوعات بحث حديث من جانبنا ، **من هذه مايلى :**

(أ) النية ودورها فى التعلم . بل دورها فى الحياة النفسية الروحية للانسان عامة .

(ب) أدب النفس (العنصر الثانى من الشق) وفيه : تعظيم العلم وأهله ، والورع ، انه نوع الدافعية الأخلاقية فى التعلم .

(ج) أنواع الدافعية ، كما استخلصتها من دراسة الزرنوجى . وخاصة دافعية المشاركة .

(د) ما أكثر مايشير الزرنوجى ، ويؤكد أهمية القامل ، فما دور هذا فى التعلم ؟

(هـ) الاختيار وفعالية التعلم .

(و) تكرار ما حفظ مؤخرا أكثر مما حفظ سابقا ، وعلاقة هذا بالحفظ ، ثم ما قد يكون أثره فى دراسات ابنجهاوس .

(ز) قراءة القرآن الكريم نظرا لتزيد الحفظ ، قضية تحتاج استقصاء .

وأخلص من هذا الى أننا نحيا وجودا ووجدانا ، فكرا وروحا ، عندما نحى أثرا علميا من نتاج ثقافتنا الاسلامية ، وأتينا اذا نحيا بهذا انما نلتقى بأصيل ذاتنا ، ودعم فريد ذاتيتنا ، ونعمق وثيق ثقتنا بذاتنا ، فتنفتح بها ، وتفتتح بنا ، على آفاق من التجديد الفكرى ، والابداع العلمى ، مانطمئن معه الى أننا نرسى قواعد حركة علمية اسلامية ناهضة ، يقوم عليها بنيان أمننا فى مستقبلها ، وتحظى باحترام أهل العلم فى أرجاء العالم . حركة علمية تعتنز بانتسابها الينا ، ونعتز بانتسابنا اليها . متوكلين فى هذا ، من قبل ومن بعد ، على الله ، واثقين من تأييده ونصره ، «ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره ، قد يجعل الله لكل شىء قدرا» (الطلاق : ٣) . صدق الله العظيم .